تبديد الأوهام: الأهداف الحقيقية للتداعي على إفريقيا

الدكتور: بيان صالح حسن (*)

لقد انطلت الخدعة على كثير من الناس، بل على بعض من حملوا مشعل الثقافة ولواء السياسة - يا للأسف الشديد -، فتوهّموا أن المستعمر هو المنقذ من التخلّف، والمخلّص من الظلام، والقائد إلى دائرة الرقي والحضارة، فدعوا إلى التعايش معه وتقبّله، والسير في ركابه، وتقليده شبراً بشبر، حتى يتم الوصول إلى ما وصل إليه من المدنية والتقدّم، ولم يشعروا بالأهداف الحقيقية لتداعي الغرب على إفريقيا وغيرها من بلاد العالم الإسلامي.

لا جدال في أن الأمم التي تتداعى على إفريقيا، بما تحويه من ثروة طبيعية وبشرية، قد وضعت أهدافاً محددة، ورسمت خططها لرحلتها المقصودة إلى القارة العذراء، وخصوصاً أن أغلب الدول التي وضعت نصب عينيها الحصول على نصيب من الكعكة الإفريقية دول مؤسسات، تتحرك وفق دراسات وخطط شارك فيها الخبراء والمتخصصون في مختلف العلوم والمعارف، وما مؤتمر برلين المنعقد في ١٨٨٤م الذي تم فيه تقسيم إفريقيا إلى مناطق نفوذ لمصالح الدول الغربية إلا نموذج لهذا التخطيط والمكر.

والمقصود بالأهداف الحقيقية للتداعي: هي تلك المقاصد التي تختفي وراء صور من النشاط الديني، والعمل الإنساني، والتسريبات الفكرية، والإصلاح السياسي والحضاري، والفعاليات الاقتصادية، والسخاء الإغاثي، والتحديث الإداري، والتطوير الاجتماعي.

الوقائع والأحداث تؤكد تلازم الاحتلال والتنصير، وتجعل منهما وجهين لعملة واحدة

لهذا فإن الحديث حول الأهداف الحقيقية لهذا التداعي حديث ذو شجون، وموضوع شائك تختلف فيه الآراء وتتشعب التحاليل، وذلك لأن هذا الجانب يحاول الوصول إلى الحقيقة بالقراءة والتحليل لتحركات القوى المتصارعة على إفريقيا، وهو حديث أقرب ما يكون إلى استكشاف النيات التي لم يُصرّح بها؛ من خلال تتبع الصور والأحداث والمقالات الماثلة أمامنا وتحليلها.

وهذا الموضوع له أهمية بالغة؛ لأنه يساعد المستهدفين على الخروج من حالة الاستغفال التي تُمارس ضدهم، والوعي بالأهداف الحقيقية للغزاة، حيث تتحدد الرؤية بعد ذلك للتعامل مع هذا الحدث وفق آليات ومبادرات تراعي تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

وليس من الفهم السديد أن تنطلق في تحليل الأهداف وأنت أسير نظرية المؤامرة،

(*) باحث بالرئاسة العامة للإفتاء - دكتوراة في علم الدعوة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ولا أن تنفي المؤامرة تماماً، وتتعامل مع التصريحات المعلنة بعقل ساذج لا يقلّب الأمور ولا يتفحّصها، فبكل تأكيد، ليس كل هدف معلن للتعامل مع الشأن الإفريقي هو الهدف الحقيقي الذي يتم السعي إلى تحقيقه، كما أن القول بأن كل هدف معلن ليس هدفاً حقيقياً قول يجانبه الصواب، فقد تكون الأهداف المعلنة هدفاً مطلوباً، وتتضمن تحت هذا الهدف أهدافاً أخرى مبطنة يستصحبها الهدف المعلن، وإن كان الهدف المعلن بحد ذاته يمثّل هدفاً حقيقياً أيضاً.

وإذا تصفحت - أخي القارئ - ما يُكتب حول الأهداف الحقيقية للتداعي الأممي على إفريقيا؛ يخالجك شعور بأن لا أهداف حقيقية معلنة، وأن الكتّاب حول هذه المسألة يستمرئون السير على رفض الأهداف المعلنة، ويصرّون على وجود أهداف حقيقية خفية، وهنا تتجلى إبداعات الكتّاب، والمحللين، والمثقفين الأفارقة، وغيرهم لاستنتاج الأهداف الحقيقية للتداعي الغربي والشرقي على إفريقيا، سواء في مرحلة الاحتلال أو بعد الاستقلال، وفقاً للخلفيات العقدية والفكرية والثقافية والمهنية لهذا الكاتب أو ذاك، فما يكتبه مسلم غيور على دينه وحرماته يختلف تأكيداً عمّا يكتبه من تشرّب الفكر الليبرالي، وغلبته النزعة القومية أو الوطنية، أو غيرها من الأفكار التي فصلته عن عقيدته ودينه.

وقد تجد المحلل الاقتصادي ينحى إلى إعطاء الأهداف الاقتصادية بعداً أكبر عمّا دونها من القضايا، وكذا المهتم بالشؤون السياسية يغلّب اهتمامه بالشأن السياسي؛ فيجعل كل القضايا خادمة للمصلحة السياسية، وكذا المهتم بالشأن الأمني أو العسكري أو الاجتماعي.. إلخ.

إن النظرة الشمولية لهذا التداعي بأبعاده المختلفة؛ ينبغي لها أن تكون حاضرة دائماً في الذهن عند دراسة الأهداف، فاستقصاء جميع الأهداف المعلنة وغير المعلنة، ومحاولة ربط بعضها ببعض قد توصّلنا إلى سلسلة من الأهداف المترابطة التي تعمل في إطار منظومة أهداف ارتيادية ومرحلية، لا تنفك بعضها عن بعض، ولا يمكن فهمها على الحقيقة إلا من هذا الوجه.

ولعل الأهداف الأكثر قابلية للجدل هي تلك الأهداف التي غُلّفت في قالب ديني أو إنساني: كقضايا التنصير، ونشر الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحملات الإغاثة، والمساعدات الإنسانية والتنموية، لذلك فإننا سنحاول في هذا المقال التركيز حول هذه القضايا بشكل خاص.

١ - وَهْم الرسالة الحضارية للاستعمار:

يُعرّف التنصير من خلال واقع التنصير أنه: «حركة دينية سياسية استعمارية، بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية»

هل كان التنصير ممهداً للاحتلال أو كان الاحتلال مساعداً للتنصير؟ وهل كان التنصير مقصوداً لذاته أو اتخذ سلماً للوصول إلى مآرب أخرى؟ أسئلة مكرورة ووجيهة في الوقت نفسه تفرض نفسها بشكل دائم.

والإجابة عن مثل هذه الأسئلة المهمة تقودنا إلى حقيقة أهداف التداعي الدولي على إفريقيا، ولعل مفهومنا وتعريفنا للتنصير يوضح العلاقة بين التنصير والاحتلال، وأزعم أن هذا هو السبب في اختلاف الناس في ربط التنصير

بالاحتلال من عدمه.

فبعض الناس يُعـرّف التنصير من خلال واقع التنصير فيرى أنه: «حركة دينية سياسية استعمارية، بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية؛ بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة، وبين المسلمين بخاصة؛ بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب»[1].

وهناك من عـرّف التنصير في إفريقيا بتعريف خاص غير بعيد عن التعريف السابق، ومصور للحالة التنصيرية الواقعية في إفريقيا، فقال إنه: «حركة دينية سياسية تجارية ممهدة للاستهدام الغربي -الاستعمار -، ومتفاعلة معه، مباركة له، وهادفة إلى ذوبان وصهر الهوية والشخصية الإفريقية في حالتها الإسلامية، أو الوثية، في الشخصية الأوروبية، دون المساواة بينهما في الخلقة والحقوق، وهادفة أيضاً إلى احتكار التجارة، والتعليم، والقيادة السياسية خصوصاً... ومنع الإسلام من التقدم في المناطق الوثية»[2].

ومثل هذه التعريفات - تأكيداً - لا ترتضيها المؤسسة الكنسية ولا رجال الدين النصراني، فهي تعريفات مزعجة لهم؛ لأنها تدينهم، وتشوّه سمعتهم، وتحمّلهم تبعات العمل الفاشي الذي مارسه الاحتلال بجميع أشكاله من التقتيل والتدمير ونهب الثروات... إلخ، فرجال الدين لا يرون في التنصير إلا تبشيراً بالمسيح، ودعوة الناس إليه بالإنجيل طبقاً لما ورد في إنجيلهم: (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يُدن)[3]، وهذه دعوى تفتقر إلى دلائل واقعية مقنعة.

ومن المعلوم؛ أن التعريف عندما يُصاغ لا ينبغي أن يُصاغ من أجل تحسين الصورة وتزيينها، كما لا يجوز أن يُقصد منه التشويه، والتجنّي على المخالف، خصوصاً أننا أمة ملزمة بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٨]، بل التعريف الصحيح ينطلق من حقائق ووقائع.

فإذا كان التعريف وصفاً لحقيقة الشيء وبياناً لماهيته؛ فإن الوقائع والأحداث تؤكد تلازم الاحتلال والتنصير، وتجعل منهما وجهين لعملة واحدة، وصنواناً لا يفترقان، سواء كان الاحتلال غزواً عسكرياً، أو نفوذاً سياسياً، أو اتخذ صورة من صوره الأخرى المختلفة، وهذا ما يشهد به التاريخ وواقع الحال دون مواربة.

استمر الغرب في فرض سيطرته حتى بعد استقلال دول إفريقيا، ولكن الذي تغير هو أسلوب الاستغلال

ولو عدنا بالذاكرة إلى الحملات التي استهدفت إفريقيا؛ نجد أن البرتغال حازت قصب السبق في التوسع نحو إفريقيا ابتداءً من عام ١٤٤٤م تنفيذاً لرغبة هنري الملاح، حيث وصلت إلى رأس بوجادور وحتى السنغال، ثم تواصلت الحملات على سواحل إفريقيا الغربية

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ١٥٩، ط ١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م - الرياض.

(٢) الدكتور حقار محمد أحمد: التنصير في إفريقيا، محاضرة ألقيت في مركز الملك فيصل بالرياض.

(٣) إنجيل مرقس، ١٦ / ١٥- ١٦.

حتى أحكمت السيطرة عليها، ثم اتجهت جنوباً، واكتشفت رأس الرجاء الصالح، وقام فاسكودي غاما بالمرور على موزمبيق في عام ١٤٩٨م، لتصبح سواحل إفريقيا محميات عسكرية يقودها جيش من المنصّرين الذين تمكّنوا من تنصير الكثير من الأفارقة، وعلى رأسهم ملك الكونغو[١].

وقد طوّق البرتغاليون إفريقيا بأسطولهم البحري، حتى وصلوا إلى السواحل الشمالية الشرقية من إفريقيا، حيث توجهت حملة برتغالية في عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م إلى سواحل البحر الأحمر، تتكون من أربع وعشرين سفينة بقيادة دي سكويرا الذي أخفق في احتلال جدة، فاتجه إلى السواحل الإفريقية، حيث كان البرتغاليون يطمعون في مد الصلة بينهم وبين نصارى الحبشة، فوصلت الحملة إلى زيلع فعاثت فيها فساداً، ثم اتجهت إلى مدينة مصوع الإريترية الساحلية، ودخلتها عنوة، فكان أول عمل أمر به قائد الحملة تحويل مسجد مصوع إلى كنيسة، وذلك بعد أن هرب منها سكانها الذين وصل إلى مسامعهم ما فعله البرتغاليون بشيوخ زيلع ونسائها[٢].

وهكذا استمر الترابط عملياً وواقعياً بين الاحتلال والتنصير في القارة الإفريقية إلى القرن العشرين الميلادي الذي سبق استقلال دول القارة، فعندما استولى الإيطاليون – على سبيل المثال – على ساحل البحر الأحمر وجدوا البعثات الفرنسية والسويدية التنصيرية قد سبقتهم إلى ذلك، فضلاً عن منصّر إيطالي يُدعى سابيتو، كان قد اشترى أرضاً في منطقة عصب الساحلية باسم شركة روباتينو للملاحة، فكانت هذه النقطة قاعدة لانطلاق الاحتلال الإيطالي على إريتريا[٣].

ومن سنن المحتلين أنهم كانوا يختارون بعناية الحكّام الذين يرسلونهم إلى إفريقيا، فكان جلّهم ممن يتعصّبون لنشر النصرانية، كالحاكم الإنجليزي غوردون في السودان، ثم أتبعوهم بعد الاستقلال بحكّام وطنيين تخرجوا في إرسالياتهم التنصيرية، كالرئيس نيريري، أو في جامعاتهم ومراكزهم العلمية.

وقد شهد الغربيون أنفسهم بهذا الترابط الشديد، حيث يقول الدكتور ولتر رودني: «وقد كانت البعثات التبشيرية المسيحية جزءاً من قوى الاستعمار إلى حدٍّ كبير، مثلها في ذلك مثل المكتشفين، والتجار، والجنود»[٤].

ويرى كتّاب آخرون أن مشاركة البعثات التنصيرية لم تكن مقصودة لذاتها، إنما كانت ذريعة لتحقيق مصالح أخرى، كالحصول على المواد الخام، وتوفير السوق المستهلكة للمنتجات، يقول ريتشارد داودن في كتابه (إفريقيا.. الأسرار والمعجزات): «وحتى يومنا هذا.. ظلت أوروبا تفرض مقاليد الهيمنة على إفريقيا، لقد غزاها الأوروبيون باسم المسيحية تارة، وباسم الحضارة تارة، وباسم التجارة تارة أخرى..

ونحن نتصور أن رسالة الدين وحكاية نشر الحضارة والمدنية إنما كانت ذرائع ليس إلا.. ساقتها قوى الاستعمار بعد وصول النظام الرأسمالي في الغرب إلى مرحلة حاسمة؛ كان

(١) انظر: الدكتور حقار محمد أحمد: التنصير في إفريقيا، محاضرة ألقيت في مركز الملك فيصل بالرياض.

(٢) انظر: غسان علي الرمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ٢٣٩ – ٢٤٠، ط ١، دار العمل للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م – الرياض.

(٣) انظر: س. ف. نايدل: التركيب السكاني في إريتريا، ترجمة جوزيف صفير، ص ٨٥، ط ١، دار المسيرة، ١٩٧٧م – بيروت.

(٤) انظر: الدكتور حقار محمد أحمد: التنصير في إفريقيا، محاضرة ألقيت في مركز الملك فيصل بالرياض.

لا بد وأن تشهد التطلع نحو أمرين أساسيين بالنسبة لتطور هذا النظام الرأسمالي:

الأمر الأول: هو التماس الخامات؛ أي المواد الأولية اللازمة لدوران عجلة الصناعة التي أصبحت محور الحياة في أوروبا الغربية على وجه الخصوص.

أما الأمر الثاني: فكان يتمثل في الأسواق المفتوحة التي تستقبل وتستهلك هذه المنتجات الغربية، ويحصد من ثم منتجوها ومحتكروها ثروات طائلة من فائض القيمة الناجم عن هذه المبادلات»[1].

ولعل ما دعا هذا المؤلف إلى ترجيح هذا الرأي؛ أن رجال السياسة في الغرب كانوا يستغلون الدين صراحة للتمكن من ثروات إفريقيا، وتجيير كل نجاح يحققه المنصّرون لمصالح البلد الأم سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً... إلخ.

في وثيقة سرية قالو للبعثات التنصيرية: ليس من أهدافنا الأساسية جعل الأسود أن يعرف الله

فقد جاء في وثيقة سرية وزّعها وزير المستعمرات البلجيكية على البعثات التنصيرية في الكونغو: إن المهمة التي كلفتم بأدائها حساسة جداً، تتطلب كثيراً من الحذر والحيطة، أيها الآباء! إنكم جئتم للتنصير، ولكن هذا يجب أن يكون ممثلاً لروح أهدافنا الكبرى، وقبل كل شيء منفعة بلدنا الأم، وليس من أهدافنا الأساسية جعل الأسود أن يعرف الله... إلخ[2].

أي ليس الهدف الإحسان إلى الإفريقي بتعريفه حقوق خالقه عقيدة وعبادة، وتعليمه الدين الصحيح الذي يخرجه من الظلمات إلى النور، ويوصله إلى مرضاة الله ودخول الجنة، بل هناك أهداف عظيمة يتصاغر أمامها العمل التنصيري الذي يحققه المنصّرون.

وبناء على جميع المعطيات المذكورة؛ فليس من العدل والإنصاف والعقلانية أن ننفي التنصير كهدف من الأهداف الحقيقية للتداعي على إفريقيا؛ لأنه لا يمكن أن تبذل مثل هذه الجهود، وترسل الإرساليات بهذه الأعداد الضخمة، وتُقام الكنائس، وتُرصد الميزانيات المهولة، وتُوضع الخطط، وتُعقد المؤتمرات الكبيرة، كمؤتمر كلورادو - نموذجاً - في عام ١٩٧٨م، وتُناقش فيها مسائل دقيقة لتنصير القارة الإفريقية بكاملها، وزيارات بابا الفاتيكان لعدد من الدول الإفريقية العربية منها وغير العربية خلال السنوات الماضية، وكان آخرها زيارة «بندكت» لكل من الكاميرون وأنغولا ورواندا في مارس ٢٠٠٩م؛ لا يمكن أن تكون كل هذه الأمور مجرد وسائل، بل كل ذلك يؤكد أن هناك توجهاً حقيقياً لتنصير القارة.

ويكفينا حجة لوجود هذا المقصد حقيقة قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ١٠٩]، ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ...﴾ [النساء : ٨٩]، فهذا الشعور عام لدى الذين كفروا، وإن شذ منهم من شذ، فالحكم للعام.

وإذا نظرنا إلى جانب الطرف المستهدف،

---

(١) www.almowatennews.com/pdf.phpid=١٢٧٢

(٢) انظر: الدكتور حقار محمد أحمد: التنصير في إفريقيا، محاضرة ألقيت في مركز الملك فيصل بالرياض.

وبخاصة المسلمون منهم، فإن خسارتهم لعقيدتهم لا تعدلها خسارة أخرى، وهذا أسوأ ما عاناه الإفريقي من التداعي الغربي عليه، وإذا تمّت السيطرة على العقيدة والفكر فما سواها أسهل، والتعامل مع المتماثل في المعتقد أسهل من التعامل مع المخالف.

وما زال التداعي قائماً ولمّا تتغير النظرة إلى القارة البكر إلى يومنا هذا، فقد استمر الغرب في فرض سيطرته حتى بعد استقلال دول إفريقيا، ولكن الذي تغير هو أسلوب الاستغلال، فاتخذ الأسلوب الناعم في غالبه مع عدم استبعاد استخدام القوة، أو التهديد باستخدامها وقت الحاجة إليها، كما حدث أخيراً من تدخّل فرنسا في ساحل العاج، حيث اعتقلت الرئيس غباغبو الذي انتهت ولايته ورفض تسليم السلطة للرئيس المنتخب حسن وتارا.

ونجد التدخّل الغربي في السودان أوضح مثال، حيث تدخّل الغرب بقوة في مشكلة الجنوب ونجح في فصلها عن دولة السودان، وتدخّل في قضية دارفور وسعى إلى تدويلها، وذلك ابتغاء تحقيق أهداف عدة؛ منها:

١ - إيقاف المد الإسلامي نحو جنوب القارة عامة؛ بجعل جنوب السودان حاجزاً منيعاً.

٢ - محاولة السيطرة على النفط السوداني ومنابع النيل للضغط على السودان ومصر[١].

٣ - كبح جماح روح استقلالية القرار في إفريقيا عامة.

فهذه التدخلات إذن، وإن كانت تتم باسم دعم الديمقراطية، وحماية المدنيين، ونشر العدالة، وحقوق الإنسان، والحرية السياسية، فإنها في النهاية تأتي لحماية مصالحها واستهداف من تصفهم بالأعداء.

٢ - وَهْم التنمية الاقتصادية:

تحاول الدول الغربية فرض هيمنتها الاقتصادية على إفريقيا باسم الشراكة الاقتصادية وتنمية القارة، وتوقِّع مع دولها اتفاقات وعقوداً تجارية واقتصادية غير متكافئة تصب في النهاية في مصلحتها.

وقد بدأ الاهتمام ينصب في الفترة الأخيرة على النفط الإفريقي الذي بدأ يظهر بكميات تجارية، خصوصاً في خليج غينيا وتشاد والكاميرون والسودان وأنجولا والجابون وغيرها، وقد أشعل دخول الصين في مجال النفط اهتمام الولايات المتحدة، بالإضافة إلى انخفاض تكلفة النقل من الغرب الإفريقي مقارنة بدول الخليج، لذا يتوقع الخبراء أن تزيد واردات أمريكا من نفط غرب إفريقيا فقط بنسبة ٢٥٪ بحلول عام ٢٠١٥م[٢].

الدعم المالي الذي يُقدّم للدول الإفريقية يتم استخدامه لإتمام عمليات غير أخلاقية

وبالرغم من المكاسب التي تحققها الدول الغربية فإنها لا تنظر إلى هذه الشراكة بعين العدالة؛ بل تسعى جاهدة إلى فرض الهيمنة الاقتصادية والولاء السياسي في الوقت نفسه، يقول توماس ديف الخبير ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي: «إن اتفاقية الشراكة التي يفرضها

(١) انظر: د. راغب السرجاني، مقال بعنوان: دارفور والتدخل الغربي، www.islamstory.com

(٢) انظر: د. حمدي حسن، مقال بعنوان: سياسات التنافس الدولي في إفريقيا، مجلة قراءات، ص ٥٧، العدد ٢ - شعبان ١٤٢٦هـ.

الاتحاد الأوروبي على دول إفريقيا والكاريبي تنطوي على أجندة غير تنموية... وتتيح لقطاع الأعمال الأوروبي صفقات احتكارية ضمن ما يتعارض مع جهود التنمية، وتحوّل حكامها إلى مجرد مديرين لمصالح الشركات الأوروبية وأرباحها»[1].

ولذلك تقبّلت الدول الإفريقية الصين شريكاً اقتصادياً جديداً ينافس الغرب، ويحفظ للدول الإفريقية مصالحها ومنافعها الاقتصادية بعيداً عن المطامع السياسية وفرض الهيمنة، فقد قال الرئيس السنغالي عبد الله واد في مقال بفاينانشال تايمز ٢٠٠٨/١/٢٤م: «إن فهم الصين لاحتياجاتنا أفضل من الفهم البطيء والمتغطرس في بعض الأحيان للمستثمرين الأوروبيين والمنظمات المانحة والمنظمات الحكومية».

وقد بلغ مجموع ما استثمرته الصين في إفريقيا حتى نهاية عام ٢٠١٠م مبلغ ٩،٣ بلايين دولار، فالصين تنظر إلى المسألة بمنظور المصالح والمنافع المالية المتحققة، فهي عندما ترسل الأموال، والمعدات، والخبراء إلى إفريقيا، ترجو أن تحصل على المقابل الذي يتمثل في النفط والمواد الخام، والنفوذ الاقتصادي، ويحصل الأفارقة على الوظائف والرواتب المجزية وتتحسن البنية التحتية لدولهم[2].

بل إن التعاون الاقتصادي والدعم المالي الذي يُقدّم للدول الإفريقية يتم استخدامه لإتمام عمليات غير أخلاقية، وقد أضحى من المألوف أن يتم الكشف بين الفينة والأخرى عن وثائق تُظهر تآمر الغرب مع قيادات الدول الإفريقية على دفن المواد النووية والكيماوية الخطرة، والتي تتسبب في الإصابة بالأمراض المستعصية، مقابل ملايين الدولارات تُقدّم باسم دعم المشروعات التنموية والاقتصادية.

وأظهرت التقارير عدداً من الدول الإفريقية التي تم دفن النفايات فيها، كالكاميرون وموزمبيق وإفريقيا الوسطى والسنغال وموريتانيا والصومال، وقد نشرت صحيفة المصري اليوم في عددها الصادر بتاريخ ٢٠١٠/٧/٢٧م اعترافات مفاوضين سودانيين شاركوا في اتفاقية دفن نفايات نووية ألمانية في السودان في عهد الرئيس جعفر نميري[3].

٣ - وَهْم المساعدات والإعانات الإنسانية:

تعاني الدول الإفريقية الفقر والعوز لأسباب متفرقة؛ منها: مواسم الجفاف، والحروب، وسوء التدبير للموارد الاقتصادية المتوفرة، والفساد المالي والإداري، وغير ذلك من الأسباب؛ لذا نجد القارة الإفريقية في قائمة القارات التي تأتيها المساعدات وحملات الإغاثة، وهذه الأعمال تحمل وجهاً إنسانياً بحتاً، ويصعب التصديق بالرأي القائل بأن هذه المساعدات تفيد منها مالياً الدول

---

(١) جريدة قاسيون، العدد ١٥ - أبريل ٢٠٠٩م.

(٢) انظر: حمدي عبد الرحمن، مقال بعنوان: إفريقيا في عالم دون مساعدات، في موقع الجزيرة نت.

(٣) حيث يقول د. سليم في شهادته: رجعت من ألمانيا، وحضر «د. فاتي» و «د. بيهلنج» في يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٨٥م في السفارة السودانية بباريس ووقّعا على الاتفاقية، ووقع عن الجانب السودانى العقيد حسن عبد الرحمن وسفيرنا في باريس يوسف مختار، وعن الجانب الألماني «د. فاتي» و «د. بيهلنج»، وهي تقريباً الاتفاقية نفسها التي وقعناها بالحروف الأولى وذكر فيها في البند السادس أنه اتفق مع الرئيس السابق جعفر نميري على دفن النفايات الذرية في السودان، البند التاسع من الخطاب المعنون بـ «Messer F. J. Gattys» بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٨٥م والخاص بـ «Nuclear Power Plant» ، والذي وقعه أحمد الحسن محمد الحاج وزير شؤون الرئاسة ومقرر المجلس الاقتصادى القومي، وذكر لي د. فاتي أن هذا رمز اتفق عليه مع جعفر نميرى لتغطية موضوع دفن النفايات انظر: http://www.almasry-alyoum.com

المانحة أكثر من الدول الممنوحة، إلا أن تجارب المنظمات الإغاثية الدولية تُفصح عن تبديد أموال الإعانات والمساعدات قبل وصولها إلى مستحقيها، وتشير بعض التقارير إلى أن كل ١٣ دولاراً يتم جمعها في الخارج لا يصل منها سوى دولار واحد فقط إلى إفريقيا؛ نظراً لارتفاع رواتب ومزايا الذين يعملون في مجال المساعدات[١].

ننتهي من ذلك إلى أن هذه المساعدات تؤدي في خاتمة المطاف إلى إثراء المواطن الغربي، وإن حصل المواطن الإفريقي على شيء من هذه المساعدات فهو الفتات الذي يتساقط من مائدة المتاجرين بالمساعدات الإنسانية.

ويلاحظ في الدعم الإنساني المقدم إلى إفريقيا أنه يُقدّم بانتقائية واضحة، فما كل الدول التي تمر بظروف متوافقة تنال الدعم الإنساني من الدول المانحة، بل تكون الاستجابة وفقاً لقابلية الدولة الممنوحة للإملاءات السياسية والاقتصادية، فكثيراً ما تحشر المنظمات العاملة في المجال الإغاثي والإنساني أنفها في المشكلات السياسية بشكل سلبي يترتب عليه قلاقل واضطرابات، فعلى سبيل المثال قامت المنظمات الإنسانية بدور استخباراتي في الكونغو الديمقراطية، ومشكلة دارفور السودانية؛ لخدمة مخططات القوى السياسية، حيث أسهمت تقارير هذه المنظمات في تعقيد الوضع في دارفور وتدويله، أضف إلى ذلك استغلال هذه المنظمات لثروات البلاد بطريقة غير مشروعة خلال الحروب الأهلية، كما حدث في كل من الكونغو وليبيريا وسيراليون، حسب تقارير الأمم المتحدة[٢].

ومهما قيل؛ فإن التداعي على إفريقيا يرنو إلى تحقيق عدد من الأهداف التي يخدم بعضها بعضاً؛ بتنصير ما يمكن تنصيره، واستغلال ما يمكن استغلاله من الثروات، وتحقيق ما يمكن تحقيقه من رفاهية للمواطن الأبيض، سواء في وطنه الأم أو الوطن الجديد الذي احتله؛ فإن ما يُراد بإفريقيا هو أن يتم مسخ الهوية الإفريقية تماماً، وأن تكون مرعى مستباحاً، وإقطاعية مشرعة الأبواب للحصول على المواد الخام بأبخس الأثمان، وتسويق المنتجات، وحتى دفن النفايات النووية والكيماوية.

(١) انظر: حمدي عبد الرحمن، مقال بعنوان: إفريقيا في عالم دون مساعدات، في موقع الجزيرة نت.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: ملف المنظمات الإنسانية والغربية.. وإفريقيا، مجلة قراءات، العدد السابع، ربيع الأول ١٤٣٢هـ / مارس ٢٠١١م.